الأسس التربوية والأخلاقية للإصلاح التي جسدها الامام زين العابدين عليه السلام

الأستاذ المساعد الدكتور
هدى محمد سلمان
جامعة بغداد ـ مركز البحوث التربوية والنفسية
virgin_dr@yahoo.com

ضرب الإمام زين العابدين أروع الأمثلة في تجسيد الخلق المحمدي العظيم في التزاماته الخاصة، وفي سيرته مع الناس، بل مع كل ما حوله من الموجودات.

فكانت تتبلور فيه شخصية القائد الإسلامي المحنك الذي جمع بين القابلية العلمية الراقية، والفضل والشرف السامق، والقدرة على جذب القلوب وامتلاكها، ومواجهة المشاكل والوقوف لصدها بكل صبر وتوءدة وهدوء. فالصبر الذي تحلى به، بتحمله ما جرى عليه في كربلاء، وفي الأسر، مما لا يحتاج إلى برهان وذكر.

ومثابرته ومداومته على العمل الإسلامي، بارزة للعيان، وهذا يمثل جزءا من نشاطه السياسي والاجتماعي الجاد. وحديث مواساته للإخوان، والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام، بالبذل والعطاء والإنفاق، مما اشتهر عند الخاص والعام، وسيأتي الكلام حول ذلك كله.

وحنوه وحنانه على الرقيق، وعلى الأقارب والأباعد، بل على أعدائه وخصومه، مما سارت به الركبان. وأخبار عبادته وخوفه من الله وإعلانه ذلك في كل مناسبة، ملأت الصحف، حتى خص بلقب (زين العابدين، وسيد الساجدين).

ومن أمثلة خلقه الرائع: العفو: وقد تناقل المؤلفون حديث هشام بن إسماعيل الذي كان أميرا على مدينة الرسول صلى الله عليه وآله، للأمويين، فعزلوه، وقد كان منه أو بعض أهله شيء يكره، تجاه الإمام زين العابدين عليه السلام، أيام كان أميرا، فلما عزل أوقف للناس، فكان لا يخاف إلا من الإمام أن يؤاخذه على ما كان منه. فمر به الإمام، وأرسل إليه: (استعن بنا على ما شئت). فقال هشام: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (سورة الأنعام (٦) الآية ١٢٤). وبهذا تمكن الإمام من جذب قلوب الناس، حتى ألد الأعداء، فكان سبباً لانفتاح الجميع

على أهل البيت عليهم السلام ومذهبهم، بعد أن انغلقوا عنهم، واعتزلوهم بعد وقعة كربلاء. ولقد ظهرت ثمرة تلك الأخلاق والجهود، في يوم وفاة الإمام عليه السلام، فقد خرج الناس كلهم، فلم يبق رجل ولا امرأة إلا خرج لجنازته بالبكاء والعويل، وكان كيوم مات فيه رسول الله. وكان من أطيب ثمرات هذه الجهود أن مهدت الأرضية للإمام محمد بن علي، الباقر عليه السلام كي يتسنم مقام الإمامة بعد أبيه زين العابدين، ويقوم بتعليم الناس معالم دينهم، وتتكون المدرسة الفقهية الشيعية على أوسع مدى وأكمل شكل وأتقنه. ومن أبرز الجهود التي بذلها الإمام زين العابدين عليه السلام في تحركه القيادي هو ما قام به من جمع صفوف المؤمنين، والتركيز على تربيتهم روحيا، وتعليمهم الإسلام، وإطلاعهم على أنقى المصادر الموثوقة للفكر الإسلامي، ومن خلال روافده الثرة الغنية، بهدف وصل الحلقات، كي لا تنقطع سلسلة عقد الإيمان.

أسس العقيدة للإمام زين العابدين عليه السلام.

بهدف تحصين العقول والنفوس من الانحرافات التي يثيرها علماء السوء الذين كانوا يبعدون الناس عن الإسلام الحق، ويكدرون ينابيعه وروافده بالشبه والأباطيل. وتعد هذه البادرة من أهم معالم الحركة عند الإمام زين العابدين، وأعمقها أثرا وخلودا في مقاومة الدولة الحاكمة، التي استهدفت كل معالم الإسلام، بغرض القضاء عليه، وإبادته، والعودة بالأمة إلى الجاهلية الأولى بوثنيتها، وفسادها، وجهلها. فراح الإمام يدعو الأمة إلى التفكير والتدبر: فمن أقواله عليه السلام: الفكرة مرآة تري المؤمن حسناته وسيئاته. ويدعو إلى العلم والفضل والحكمة: فقال عليه السلام: سادة الناس في الدنيا: الأسخياء، وفي الآخرة: أهل الدين، وأهل الفضل والعلم، لأن العلماء ورثة الأنبياء.

وقال عليه السلام: لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج.

إن الله أوحى إلى دانيال: إن أمقت عبيدي إلي الجاهل، المستخف بحق أهل العلم، التارك للاقتداء بهم، وإن أحب عبيدي إلي التقي، الطالب للثواب الجزيل، الملازم للعلماء، التابع للحكماء. وكان عليه السلام يحث الأمة - والشباب منهم خاصة - على طلب العلم، فكان إذا نظر إلى الشباب الذين يطلبون العلم أدناهم إليه، فقال: مرحبا بكم، أنتم ودائع العلم، أنتم صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار آخرين. وكان إذا جاءه طالب علم قال: مرحبا

بوصية رسول الله ﷺ. ويدعو الأمة إلى المراقبة الذاتية لنفسها، لتتحصن من اجتياح وسائل التزوير والخداع، ونفوذ نفثات الشياطين. فيقول عليه السلام: ليس لك أن تقعد مع من شئت، لأن الله تعالى يقول في الأنعام (الآية ٦٨): ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وليس لك أن تتكلم بما شئت، لأن الله يقول في الإسراء (الآية ٣٦): (ولا تقف ما ليس لك به علم) وقال رسول الله ﷺ: (رحم الله عبدا قال خيرا فغنم، أو صمت فسلم). وليس لك أن تسمع ما شئت، لأن الله يقول: (الإسراء: ٣٦): ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾. وبهذا يحذر الإمام عليه السلام الأمة من الجلوس مع المزورين والظالمين، ومن التحدث والكلام معهم، أو صرف العمر معهم في حديث الجهالات والخرافات، وما لا يزيد الإنسان معرفة بحياته أو قوة وتركيزا في عقيدته وإيمانه، أو تعديلا في سلوكه وأخلاقه، بل لا تعدو لغو السمر، والشعر الساقط، وأحاديث الفكاهة والمجون، التي كان يروجها السلاطين وأمراء السوء. وهو عليه السلام في الوقت نفسه يحيي بهذا الأسلوب سنن الاستدلال بآيات القرآن الكريم، والاعتماد عليه وعلى سنة رسول الله ﷺ اللذين دأب الظالمون على إبعاد الأمة عنهما، وإماتتهما، وإبادتهما بالإحراق بالنار، والإماثة في الماء، والدفن تحت الأرض، ومنع التدوين. كما حذر الأمة من الارتباط بمن لا يدعو إلى الله والحق، ومن الاستماع إليهم، وهم دعاة السوء، وأدعياء العلم، من علماء البلاط، الذين ركنوا إلى الظالمين وآزروهم. وقد كان عليه السلام يدأب على تربية الأمة وتهذيبها، وتقديم الإرشادات إليها، وتجلى ذلك في وصاياه المأثورة التي جمعت بين معالم الهداية والحكمة، ووسائل الحذر والوقاية، وبث الأمل والقوة، وبعث النشاط والهمة في نفوس أصحابه: ففي رسالته إليهم يقول عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم: كفانا الله وإياكم كيد الظالمين، وبغي الحاسدين، وبطش الجبارين. أيها المؤمنون، لا يفتنكم الطواغيت وأتباعهم من أهل الرغبة في هذه الدنيا، المائلون إليها، المفتنون بها، المقبلون عليها، وعلى حطامها الهامد، وهشيمها البائد غدا فاحذروا ما حذركم الله منها، وازهدوا في ما زهدكم الله فيه منها. ولا تركنوا إلى ما في هذه الأمور ركون من اتخذها دار قرار ومنزل استيطان. والله! إن لكم مما فيها لدليلا، وتنبيها، من تصرف أيامها، وتغير انقلابها ومثلاتها وتلاعبها بأهلها، إنها لترفع الخميل، وتضع

الشريف، وتورد أقواما إلى النار غدا، ففي هذا معتبر ومختبر وزاجر لمنتبه. إن الأمور الواردة عليكم في كل يوم وليلة من مضلات الفتن، وحوادث البدع، وسنن الجور، وبوائق الزمان، وهيبة السلطان، ووسوسة الشيطان، لتثبط القلوب عن تنبهها، وتذهلها عن موجود الهدى، ومعرفة أهل الحق إلا قليلا ممن عصم الله، فليس يعرف تصرف أيامها وتقلب حالاتها، وعاقبة ضرر فتنتها إلا من عصم الله، ونهج سبيل الرشد، وسلك طريق القصد، ثم استعان على ذلك بالزهد، فكرر الفكر، واتعظ بالعبر فازدجر وزهد في عاجل بهجة الدنيا، وتجافى عن لذاتها، ورغب في دائم نعيم الآخرة، وسعى لها سعيها، وراقب الموت، وشنأ الحياة مع القوم الظالمين، ونظر إلى ما في الدنيا بعين نيرة حديدة النظر، وأبصر حوادث الفتن، وضلال البدع، وجور الملوك الظلمة. فقد - لعمري - استدبرتم الأمور الماضية في الأيام الخالية من الفتن المتراكمة، والانهماك فيها، ما تستدلون به على تخيب الغواة وأهل البدع، والبغي، والفساد في الأرض، بغير الحق. فاستعينوا بالله، وارجعوا إلى طاعة الله، وطاعة من هو أولى بالطاعة ممن اتبع فأطيع. فالحذر، الحذر، من قبل الندامة والحسرة والقدوم على الله، والوقوف بين يديه. وتالله! ما صدر قوم قط عن معصية الله إلا إلى عذابه، وما آثر قوم - قط - الدنيا على الآخرة، إلا ساء منقلبهم، وساء مصيرهم وما العلم بالله والعمل بطاعته إلا إلفان مؤتلفان، فمن عرف الله خافه، وحثه الخوف على العمل بطاعة الله. وإن أرباب العلم وأتباعهم الذين عرفوا الله فعملوا له، ورغبوا إليه، فقد قال الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر (٣٥) الآية: ٤).

فلا تلتمسوا شيئا مما في هذه الدنيا بمعصية الله، واشتغلوا في هذه الدنيا بطاعة الله، واغتنموا أيامها، واسعوا لما فيه نجاتكم من عذاب الله، فإن ذلك أقل للتبعة، وأدنى من العذر، وأرجى للنجاة. فقدموا أمر الله، وطاعة من أوجب الله طاعته، بين يدي الأمور كلها، ولا تقدموا الأمور الواردة عليكم من الطواغيت، من زهرة الدنيا، بين يدي أمر الله وطاعته وطاعة أولي الأمر منكم. واعلموا أنكم عبيد الله، ونحن معكم، يحكم علينا وعليكم سيد غدا، وهو موقفكم، ومسائلكم، فأعدوا الجواب قبل الوقوف والمسألة والعرض على رب العالمين.

واعلموا أن الله لا يصدق كاذبا، ولا يكذب صادقا، ولا يرد عذر مستحق، ولا يعذر

غير معذور، له الحجة على خلقه بالرسل والأوصياء. فاتقوا الله - عباد الله - واستقبلوا في إصلاح أنفسكم طاعة الله، وطاعة من تولونه فيها، لعل نادما قد ندم في ما فرط بالأمس في جنب الله، وضيع من حقوق الله. فاستغفروا الله، وتوبوا إليه، فإنه يقبل التوبة، ويعفو عن السيئة، ويعلم ما تفعلون. وإياكم، وصحبة العاصين، ومعونة الظالمين، ومجاورة الفاسقين، احذروا فتنتهم، وتباعدوا من ساحتهم. واعلموا أنه من خالف أولياء الله، ودان بغير دين الله، واستبد بأمره دون ولي الله كان في نار تلهب، تأكل أبدانا قد غاب عنها أرواحها، وغلبت عليها شقوتها، فهم موتى لا يجدون حر النار، ولو كانوا أحياءً لوجدوا مضض حر النار. فاعتبروا يا أولي الأبصار واحمدوا الله على ما هداكم، واعلموا أنكم لا تخرجون من قدرة الله إلى غير قدرته، وسيرى الله عملكم ورسوله، ثم إليه تحشرون. وانتفعوا بالعظة. وتأدبوا بآداب الصالحين. بهذا يحصن الإمام عليه السلام أصحابه خاصة والمسلمين عامة بالطاعة، والزهد، والورع عن المعاصي، والبعد عن بهجة الدنيا وعن مفاتن الحياة المادية، التي يستخدمها الطواغيت، كمغريات لتحريف الأمة عن سنن الهدى. ويحاول الإمام عليه السلام أن يهون عليهم المصائب والأتعاب التي تواجههم على هذا الطريق الوعر. ويؤكد عليه السلام على التزامهم بالحق، واعتقادهم بولاية الأئمة الأطهار عليهم السلام: الذين فرض الله ولايتهم وأوجب طاعتهم. ويبث في نفوسهم روح المقاومة والصبر والصمود والمثابرة والجد، ويثير فيهم روح العمل والتحرك والنشاط! ويملؤهم بالأمل، والبشرى بالنجاح والفلاح، ويصلي عليهم لتكون صلاته سكنا لهم.

فيقول في دعائه ليوم عرفة بعد الصلاة على الأئمة:

اللهم!وصل على أوليائهم، المعترفين بمقامهم، المتبعين منهجهم، المقتفين آثارهم، المستمسكين بعروتهم، المتمسكين بولايتهم، المؤتمين بإمامتهم، المسلمين لأمرهم، المجتهدين في طاعتهم، المنتظرين أيامهم، المادين إليهم أعينهم. وبهذه القوة، ليصنع منهم جيلا، متكتلا، متوثبا، طموحا، ثابت الجأش، قوي العزيمة، متماسك الصف، متحد الهدف. وفي نص آخر، يحثهم الإمام عليه السلام على المواساة والإحسان، والمنافسة فيقول: شيعتنا! أما الجنة فلن تفوتكم، سريعا كان أو بطيئا، ولكن تنافسوا في الدرجات! واعلموا أن أرفعكم درجات، وأحسنكم قصورا، ودورا، وأبنية: أحسنكم إيجابا بإيجاب المؤمنين، وأكثركم مواساة

لفقرائهم. إن الله ليقرب الواحد منكم إلى الجنة بكلمة طيبة يكلم أخاه المؤمن الفقير، بأكثر من مسيرة ماءة عام بقدمه، وإن كان من المعذبين بالنار. فلا تحتقروا الإحسان إلى إخوانكم، فسوف ينفعكم حيث لا يقوم مقام غيره. وهو عليه السلام في الوقت الذي يجد من أنصار الحق تذمرا، أو وهنا، أو تألما من مجاري الأحداث حولهم، يهب لنجدتهم، وتقويتهم روحيا ومعنويا، فيقول: فما تمدون أعينكم؟ لقد كان من قبلكم، ممن هو على ما أنتم عليه، يؤخذ فتقطع يده ورجله ويصلب! ثم يتلو عليه السلام: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ...﴾ (البقرة (٢): ٢١٤).

وبكل هذه الجهود والتحصينات والتعاليم المركزة، تربى جيل صامد من المؤمنين، المتسلحين بالإسلام، بعلومه وعقيدته وتقواه وإخلاصه، فأصبحوا أمثلة للشيعة، وقدوة صالحة للتعريف لمن يستحق هذا الاسم من المنتمين إلى التشيع، من أمثال: يحيى بن أم الطويل: الذي عد من القلائل الذين بقوا - بعد كربلاء - على ولائهم واتصالهم بالإمام زين العابدين عليه السلام، وكان من المجاهرين بالحق، كان يقف بالكناسة في الكوفة، وينادي بأعلى صوته: معاشر أولياء الله! إنا برءآء مما تسمعون. من سب عليا عليه السلام فعليه لعنة الله.

ونحن برءآء من آل مروان وما يعبدون من دون الله. ثم يخفض صوته فيقول: من سب أولياء الله فلا تقاعدوه، ومن شك في ما نحن عليه فلا تفاتحوه، ومن احتاج إلى مسألتكم من إخوانكم... فقد خنتموه. وكان يدخل مسجد الرسول صلى الله عليه وآله - حيث يجتمع المشبهة الملحدون - ويقول: كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء. وقد طلبه الحجاج، وأمر بقطع يديه ورجليه، وقتله. وسعيد بن جبير: الذي مثل به الحجاج وقتله (٤) وكان قد خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث، يحارب دولة بني أمية وكان يومئذ يقول: قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم، بنية ويقين، على آثامهم قاتلوهم، وعلى جورهم في الحكم، وتجبرهم في الدين، واستذلالهم الضعفاء، وإماتتهم الصلاة. والذين اختفوا من جور بني أمية مثل سالم بن أبي حفصة، وسليم بن قيس الهلالي، وعامر بن واثلة الكناني، ومحمد بن جبير بن مطعم. والذين هربوا فنجاهم الله مثل أبي خالد الكابلي، وأبي حمزة الثمالي، وشعيب مولى الإمام. وآل أعين الذين قال الحجاج فيهم: (لا يستقيم لنا الملك ومن آل أعين رجل تحت حجر)، فاختفوا وتواروا. وفي طليعة من رباهم الإمام زين العابدين أبناؤه: الإمام أبو

جعفر محمد الباقر عليه السلام، الذي تحمل الإمامة من بعده، وقاد الأمة إلى الهدى والرشاد، وأسس المدرسة الفقهية على قواعد الإسلام المتينة، ومصادره وأصوله الرصينة، عندما بدأ الحكام بترويج فقه وعاظ السلاطين، فحفظ بذلك الشريعة المقدسة من الزوال. وابنه الحسين الأصغر، الذي روى عن أبيه العلم، وكان مشارا إليه في العبادة والصلاح. وأخذ الحديث عن عمته فاطمة بنت الحسين، وأخيه الإمام الباقر عليه السلام. وقال فيه الإمام الباقر عليه السلام: أما الحسين فحليم، يمشي على الأرض هونا. وابنه العظيم المجاهد في سبيل الله زيد الشهيد عليه السلام الذي ضرب أروع الأمثلة في الإباء والحمية، والفداء والتضحية. وكان عين إخوته - بعد أبي جعفر عليه السلام - وأفضلهم، وكان عابدا ورعا، فقيها، سخيا، شجاعا، وظهر بالسيف، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويطلب بثارات الحسين عليه السلام. إن ثورة زيد بن علي عليه السلام كانت عظيمة من حيث توقيتها، وآثارها التي خلفتها، لخدمة حق أهل البيت عليهم، ونستعرض في ما يلي بعض ذلك:

١ - إن هذه الحركة الشجاعة دلت على أن البيت الذي يلد مثل زيد من الرجال، في البطولة والشهامة، والجرأة والإقدام، فضلا عن العلم والعبادة والتقى، لا يبنى على التخاذل والمهادنة مع الظالمين، أو الابتعاد عن السياسة والتوجس من العذاب، والهول من المصائب. ولو كان لأحد أثر في تربية زيد الشهيد على كل تلك الصفات، فليس إلا لأبيه الإمام الطاهر زين العابدين، وإلا لأخيه الإمام الباقر عليه السلام، اللذين علماه الإسلام بما فيه من تعاليم الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودرساه التاريخ بما فيه بطولات جده علي أمير المؤمنين عليه السلام وذكراه بثارات جده الحسين عليه السلام، وزقاه المجد والكرامة، ولقناه الإباء والحرية. واستلهم - هو - من حياة أبيه وأخيه، وسيرتهم الحميدة والأصيلة، ونضالهم الصامت والناطق سنن التضحية والفداء، حتى جعل في مقدمة أهداف ثورتها العظيمة: الطلب بثارات الحسين عليه السلام في كربلاء.

٢ - إن ثورة زيد بن علي عليه السلام هي الثمرة اليانعة للجهود السياسية التي بذلها الإمام زين العابدين، طول فترة إمامته، فهو الذي تمكن بتخطيطه الدقيق من استعادة القوى، وتهيئة النفوس، لمثل حركة ابنه الشهيد، وإن صح التعبير فهو الذي جيش لابنه زيد ذلك الجيش المسلح، الذي فاجأ الظالمين، وزعزع ثقتهم بالحكم الظالم.

فلم يكن الجيش الذي كان مع زيد وليد ساعته، أو يومه، أو شهره، أو سنته، مع تلك المقاومة الباسلة التي أبداها أصحابه وأنصاره.

٣ - ويكفي زيد بن علي عليه السلام عظمة أنه ضحى بنفسه في سبيل تعزيز مواقع الأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم السلام، فقد كشف للأمويين الطغاة، في فترة حساسة من تاريخ حكمهم، أن أهل البيت: لا يزالون موجودين في الساحة، ولديهم القدرة الكافية على التحرك في أي موقع زمني، وأي موضع من البلاد، وهذا ما جعل الأمويين يهابون الأئمة عليهم السلام ويعدونهم المعارضين الأقوياء، المدافعين عن هذا الدين، برغم جسامة التضحيات التي كانوا يقدمونها، وأبان الشهيد زيد لكل الظالمين أن أهل البيت عليهم السلام لا يسكتون عمن يعتدي على كرامة الإسلام، مهما كلف الثمن. وبهذا يفسر قوله لابن أخيه الصادق جعفر بن محمد - لما أراد الخروج إلى الكوفة -: أو ما علمت يا بن أخي أن قائمنا لقاعدنا، وقاعدنا لقائمنا، فإذا خرجت أنا وأنت، فمن يخلفنا في حرمنا؟

٤ - إن قيام الشهيد زيد بن علي عليه السلام، بحركته خارج حدود المدينة صرف أنظار الحكام عن قطب رحى الدين، ومحور فلك الإمامة والقيادة، وهم الأئمة القائمون في المدينة المنورة، بحيث تمكن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام من أداء دوره القيادي، مستفيدا من كل الأجواء الإيجابية التي خلقتها ثورة عمه الشهيد زيد بن علي عليه السلام، لينشر علوم آل محمد الحقة، ويربي الجيل الإسلامي المؤمن. وكفى ذلك عظمة ومجدا وهدفا ساميا.

٥ - وكان من ثمرات ثورة زيد بن علي عليه السلام أنه أثبت للأمة صدق الدعوى التي يرفع رايتها أئمة أهل البيت، في الدفاع عن هذا الدين والنضال من أجله، فهذه التضحيات الكبرى أوضح شاهد على ذلك. وكان ذلك تعزيزا عمليا لمواقع أهل البيت عليهم السلام في أوساط الأمة الإسلامية.

ثانياً - في مجال الإصلاح وشؤون الدولة:

إن كان الإصلاح من أبرز ما يقصده الأنبياء والأئمة عليهم السلام، لأن مهمتهم إنما جعلت في الأرض لدفع الفساد عنها بهداية الخلق إلى ما هو صالح لهم، وقطع دابر المفسدين. فإن كان

هذا هو الحق: فإن الإمام زين العابدين عليه السلام لم يتخل عن موقعه الإلهي، كقائد للأمة الإسلامية، ومصلح للمجتمع الإسلامي، وقد تبلور في ساحة العمل الاجتماعي، في كل زواياها وأطرافها، وأبرزها المطالبة بإصلاح جهاز الحكم. إن أقصى ما يريد أن يبعده المؤرخون المحدثون عن حياة الإمام زين العابدين هو العمل السياسي، والتعرض للجهاز الحاكم، والتطلع إلى إصلاح الدولة، فيحاولون الإيحاء - بعبارات شتى - أن الإمام عليه السلام لم يكن سياسيا، وكان بعيدا عن التورط في ما يمس قضايا السياسة من قريب أو بعيد، وأنه انزوى متعبدا بالصلاة والدعاء والاعتكاف! ومع اعتقادنا أن مزاولات الإمام الدينية - كلها من صميم العمل السياسي، وخصوصا في عصره، إذ لم يسمع نغم الفصل بين السياسة والدين، بعد! فمع ذلك: نجد في طيات حياة الإمام زين العابدين عليه السلام عينات واضحة، من التدخلات السياسية الصريحة. فهو في ما يلي من النصوص المنقولة عنه، يبدو رجلا مشرفا على الساحة السياسية، فهو يدخل في محاورات حادة، ويتابع مجريات الأحداث، ويدلي بتصريحات خطرة بشأن الأوضاع الفاسدة التي تعيشها الأمة، وهو ينميها – بكل صراحة - إلى فساد الدولة.

١- قال عبد الله بن حسن بن حسين: كان علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يجلس كل ليلة، هو، وعروة بن الزبير، في مؤخر مسجد النبي صلى الله عليه وآله! بعد العشاء الآخرة، فكنت أجلس معهما، فتحدثا ليلة، فذكرا جور من جار من بني أمية، والمقام معهم، وهما لا يستطيعان تغيير ذلك! ثم ذكرا ما يخافان من عقوبة الله لهم! فقال عروة لعلي: يا علي، إن من اعتزل أهل الجور، والله يعلم منه سخطه لأعمالهم، فكان منهم على ميل ثم أصابتهم عقوبة الله رجي له أن يسلم مما أصابهم. قال: فخرج عروة، فسكن العقيق. قال عبد الله بن حسن: وخرجت أنا فنزلت سويقة. أما الإمام زين العابدين فلم يخرج، بل: آثر البقاء في المدينة طوال حياته لأنه يعد مثل هذا الخروج فرارا من الزحف السياسي، وإخلاءً للساحة الاجتماعية للظالمين، يجولون فيها ويصولون. وما أعجب ما في النص من قوله: (يجلسون كل ليلة... في مسجد الرسول) وكأنه اجتماع منظم، ولا ريب أن فيه تحديا صارخا للنظام يقوم به الإمام زين العابدين عليه السلام.ولعل اقتراح عروة بن الزبير - وهو من أعداء أهل البيت عليهم السلام كان تدبيراً سياسياً منه، أو من قبل الحكام، ومحاولة لإبعاد الإمام عليه السلام عن الحضور في الساحة الاجتماعية، لكنه عليه السلام لم يخرج،

وظل يداوم مسيرته النضالية.

٢- وفي حديث آخر: قال الإمام زين العابدين عليه السلام: إن للحمق دولة على العقل، وللمنكر دولة على المعروف، وللشر دولة على الخير، وللجهل دولة على الحلم، وللجزع دولة على الصبر، وللخرق دولة على الرفق، وللبؤس دولة على الخصب، وللشدة دولة على الرخاء وللرغبة دولة على الزهد، وللبيوت الخبيثة دولة على بيوتات الشرف، وللأرض السبخة دولة على الأرض العذبة. فنعوذ بالله من تلك الدول، ومن الحياة في النقمات.

وإذا كانت (الدولة) - في اللسان العربي - هي: الغلبة والاستيلاء، وهي من أبرز مقومات (السلطة الحاكمة) فإن الإمام عليه السلام يكون قد أدرج قضية السلطة السياسية في سائر القضايا الحيوية، والطبيعية، التي يهتم بها، ويفكر في إصلاحها، ويحاول رفع مشكلاتها التي تستولي على الإنسان، من اقتصادية، وثقافية، ونفسية، ودينية. فمن - يا ترى - يعني الإمام عليه السلام بالبيوتات الخبيثة التي لها السلطان على الأشراف، في عصر الإمام عليه السلام؟! ومن هي البيوتات الشريفة المغلوبة في عصره عليه السلام؟! وهل التعوذ بالله من دولة السلطان، يعني أمرا غير رفض وجوده، واستنكار سلطته؟! وهل لسياسي آخر حضور أقوى من هذا، في مثل ظروف الإمام عليه السلام وموقعه، وضمن تخطيطه الشامل لحل المشاكل؟ وأخيرا هل يصدر مثل هذا من رجل ادعي: أنه ابتعد عن السياسة، أو اعتزلها!؟

قائمة المصادر والمراجع

١- هل البيت في القران الكريم، ط١، الناشر المجمع العالمي لأهل البيت، الجمهورية الاسلامية الايرانية، قم، ٢٠١٥.

٢- بيات، عاطي، دراسة أسلوبية في خطب الامام السجاد في مجلس يزيد بالشام، بحث منشور، جامعة الاهواز، ٢٠١٥.

٣- سن، عباس، الفكر السياسي الشيعي، ط ١، بيروت، ٢٠١٢.

٤- الخطيب، عبد الكريم، الخلافة والامامة، ط١، القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٦٣.

٥- ارف، تامر، الامامة والسياسة، بيروت، دار الكتب، بدون تاريخ.